



متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة

ترخيص رقم 2022/244

مجلة دورية محكمة تعنى بقضايا العلوم النظرية والتطبيقية

الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف المطبوعات: ISSN 2959-9423

السنة الأولى 2024
نيســـــان

العدد 4



المحتويات

الأطماع البيزنطيّة في لبنان في العصور الوسطى

أ.م.د. جورج نصّار(*)

الملخّص

يحمل هذا البحث عنوان الأطماع البيزنطية في لبنان في العصور الوسطى، وقد تطرّق إلى تعدّد آراء المؤرخين وإختلافها حول تاريخ ميلاد الإمبراطورية البيزنطية حسبما وردت لدى كلٍّ منهم، ثم بداية الصراع البيزنطي الفارسي، مع تحديد لمحة عن جغرافية لبنان السياسية، من خلال المصادر العربية واليونانية والبيزنطية، وبعد تزايد الأطماع البيزنطية في لبنان مع الإمبراطور هرقل، والغزوات البحرية الإسلامية نحو بلاد الروم، أيام الأباطرة قسطنطين الليحياني وابنه يوستينيانوس الثاني، والجهد الذي قام به البيزنطيون من أجل الدخول إلى مدينة طرابلس وفشلهم أمام مناعة أسوارها، لكنّ هذا لم يثنِهم عن الاستمرار في هجماتهم على لبنان أيام الأمويين والعباسيين والأخشيديين والفاطميين، خاصة مع الإمبراطور نقفور فوقاس وخلفه يوحنا تزيمسكس وفشلهم في دخول طرابلس، وصولاً إلى الإمبراطور باسيل الثاني الذي حارب الفاطميين ولم يتمكن من دحرهم سواء في حملته الأولى أو الثانية.

وأخيراً جاء الحديث عن الهدن التي عقدت بين الطرفين واحترما بنودها، وصولاً حتى العام 1057م، حيث توقّفت الأطماع البيزنطية مع بداية انحطاطها وتراجعها، وصولاً إلى سقوطها سنة 1453م، في عهد الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر.

(*) أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مادة التاريخ العربي والإسلامي.

كلمات مفتاحية:

لبنان، البيزنطيّون، الفاطميّون، الأطماع، باسيل الثاني، العباسيّون.

Résumé en français

Cette recherche porte sur les ambitions byzantines au Liban au Moyen Âge. en abordant la pluralité des opinions des historiens et leurs divergences sur la date de naissance de l'Empire byzantin selon chacun d'eux, ainsi que le début de la lutte entre Byzance et la Perse, avec une description de la géographie politique du Liban à travers les sources arabes, grecques et byzantines. Après l'augmentation des ambitions byzantines au Liban sous l'empereur Héraclius, et les invasions maritimes islamiques vers les terres des Romains, pendant les jours des empereurs Constantin IV et son fils Justinien II, et les efforts déployés par les Byzantins pour entrer dans la ville de Tripoli et leur échec devant la résistance de ses remparts, rien de tout cela ne les a découragés de continuer leurs attaques contre le Liban pendant les jours des Omeyyades, des Abbassides, des Aghlabides et des Fatimides, en particulier avec l'empereur Nicéphore Phocas et son successeur Jean Tzimiskes et leur échec à prendre Tripoli, jusqu'à l'empereur Basile II qui a combattu les Fatimides et n'a pas pu les repousser que ce soit dans sa première ou sa deuxième campagne. Enfin, il est question des trêves conclues entre les deux parties et le respect de leurs clauses, jusqu'en 1057, lorsque les ambitions byzantines se sont arrêtées avec le début de leur déclin et de leur recul, aboutissant à leur chute en 1453, sous le règne de l'empereur Constantin XI.

Mots clés: Liban, Byzantins, Fatimides, Ambitions, Basile II, Abbasids.

مقدمة

إختلفت آراء المؤرّخين حول ميلاد الإمبراطوريّة البيزنطيّة، نظرًا لتعدّد الآراء وتضارب المعلومات بشأنها، ما سبّب ضياعًا لدى عدد كبير منهم، إذ يتّضح لنا أن الآراء لا تزال تتخبّط وتتشابك.

ويرجّح المؤرخون أنّ العام 476م، هو بداية الإمبراطوريّة البيزنطيّة، لأنه يُعتبر تاريخ إسقاط الإمبراطوريّة الرومانيّة على أيدي الجرمان بقيادة إدواكر Adoacer، وانتهاء

حكم الإمبراطور رومولوس أوجستيلوس آخر إمبراطور رومانيّ، وبذلك انتهت الإمبراطوريّة في الغرب وعند أصحاب ذلك الرأي، وبدأت الإمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة أي البيزنطيّة. ومسمّى الإمبراطورية البيزنطيّة هو الآخر من المسمّيات الحديثة وله ما يبرره، فكلمة بيزنطة مرجعها إلى أنّ الإمبراطور قسطنطين عندما بنى عاصمته القسطنطينيّة، بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطة أسّسها بيزاس قائد المجموعة اليونانيّة التي هاجرت إلى هذا الموضع في القرن السابع قبل الميلاد، وقد عُرفت المدينة بإسم بيزنطة نسبة إلى هذا القائد[1].

سيعالج البحث بداية الصراع البيزنطي-الفارسي على أرض بلاد المشرق، وصولاً إلى الصلح بينهما، ثم الصراع البيزنطي-الإسلامي، أيام الخلفاء الراشدين، ومع الخلفاء الأمويين، وفي العهد الإخشيدي ثم الفاطمي الذي دام حوالى قرنين من الزمن، إلى أن وصل الفرنج الذين واجهوا جيش الفاطميّين والزنكيّين والأيوبيّين، ثم أتت نهايتهم على يد المماليك.

لقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي إضافة إلى المنهج التحليلي، للوصول إلى معطيات علمية تفيد في تقديم البحث بشكل منطقي وتسلسلي، وابتعد قدر الإمكان عن السرد الأدبي المملّ. وقد استند إلى عدد غير قليل من مصادر العصور الوسطى التي شهدت ذاك الصراع، والذي بدوره إمتد حوالى أربعة قرون، ما أنهك جميع الأطراف بالرغم من فترات الهدن التي عقدت بين الطرفين.

وانطلاقاً مما تقدّم، تبرز الإشكالية التالية:

كيف أدّت الأطماع البيزنطيّة في لبنان إلى نشوء صراعات على أراضيه؟ وما هي الجذور التاريخية لهذه الأطماع؟

وللإجابة على الإشكالية، لا بدّ من وضع الفرضيات التي جاءت على الشكل التالي:

- أخذ الصراع منحى عسكرياً وتسبّب بنشوء نزاعات عسكرية على أراضيه.
- أراد البيزنطيون السيطرة على أراضي لبنان، لما لها من أهمية اقتصادية.

---

(1) Vasiliev, A, **HISTOIRE DE L'EMPIRE BEZANTIN**, Vol 1, p 213.

- تعود الجذور التاريخية لهذه الأطماع لأيام الفتح العربي، وهذه الأطماع متعلّقة بإعادة أمجاد الإمبراطورية البيزنطية.

أولاً. الصراع البيزنطيّ - الفارسيّ

استهلّ القرن السابع الميلاديّ سنواته الأولى بنشوب صراع عنيف بين قوتيّ العالم آنذاك، الدولة البيزنطيّة والدولة الفارسيّة، وقد بلغ ذروته عندما تولّى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطوريّة البيزنطيّة، الذي امتدّت ولايته من العام 610 حتى عام 641م، وسبب تلك الحروب ما جاش بأكاسرة الفرس من أطماع توسّعيّة عاملين على الإفادة ممّا ساد الدولة البيزنطيّة من اضطراب، وما تفشّى فيها من حوادث القتل والدسّ والمؤامرات التي هيّأت لهرقل فرصة اعتلاء عرش الإمبراطوريّة، فجهد الفرس على تحقيق الحلم الذي داعبهم وأرّقهم أيضًا، وهو الحصول على منفذ يطلّ على البحر المتوسط تكمل به دولتهم سيطرتها التجاريّة[2].

تقدّمت القوات الفارسيّة وتوغّلت في بعض أقاليم آسيا الصغرى حتى وصلت إلى خلقيدونية قبالة القسطنطينيّة، كما وصلت قوات أخرى إلى أرجاء الشام، وتقدّمت جيوشهم إلى حمص بالشام، واستولوا عليها، كما استولوا على إنطاكية وقيصرية ودمشق بالشام. وفي سنة 614 م، أنزل الفرس بالبيزنطيين، قادة العالم المسيحيّ، ضربة قاسية باستيلائهم على بيت المقدس، إذ أضحت تلك المدينة المرتبطة بأصول الديانة المسيحيّة في أيدي الفرس الوثنيّين الذين أمعنوا في الحطّ من هيبة بيزنطة أمام العالم المسيحيّ، بنقلهم صليب الصلبوت من بيت المقدس وإرساله إلى عاصمة بلادهم. وفي سنة 619 م، غدا الفرس سادة بحر الشام وأكملوا سيطرتهم على مياه البحر المتوسط الشرقيّ باستيلائهم على مصر، ولم يقف الجشع الفارسيّ عند هذا الحدّ، بل جرأتهم حملتُهم على مهاجمة القسطنطينيّة التي أنقذتها مِنْعتها الطبيعية وموقعها الجغرافي من التردّي في يد الفرس[1].

---

(1) J.B. Bury: A **HISTORY OF THE LATER ROMAN EMPIRE**, vol 2, London, P P. 219 - 240.

لقد فرض هذا الأمر على الكنيسة والدولة أن يقفا صفًا واحدًا في سبيل تخليص بيت المقدس وصليب الصلبوت، وانكبّ هرقل على إعداد خطّته الحربيّة التي انتهى منها سنة 621م. وقد جاءت محكمة هيأت له فوزًا مظفرًا، فبعث أسطوله من القسطنطينيّة سنة 622 م، إلى مياه الشام، في حين تقدّم على رأس جيوشه برًا عبر آسيا الصغرى، متجنّبًا الاصطدام بالجيوش الفارسيّة الضاربة في تلك البلاد، ولمّا وصل إلى أطراف آسيا الصغرى من ناحية الشام، قام بمناورة حربيّة معلنًا أنّ هدفه الزحف إلى بلاد الفرس نفسها، فاضطر الجيش الفارسيّ إلى الجلاء عن آسيا الصغرى لكي يمنع تقدّمه نحو الأراضي الفارسيّة، وبذلك أنقذ هرقل آسيا الصغرى في حركة حربيّة بارعة تشهد له بالمهارة وحبّه للمغامرة.

ثَمّة أمر آخر لا بدّ أن نشير إليه، هو أنّ النصر ظلّ يسير ركاب هرقل منذ بدأ حملاته على الفرس سنة 621 م، وقد باءت جميع محاولات الفرس بالفشل، بخاصّة بعد محاولتهم استعداء القبائل الضاربة على أطراف الدولة البيزنطيّة الشماليّة وحثّهم على مهاجمة القسطنطينيّة، وحمل هرقل للتخلّي عن مهاجمة الفرس.

وفيما بعد حصل الصلح بين الدولتين، البيزنطيّة والفارسيّة عام 628م، جَلَتْ بمقتضاه كل القوات البيزنطيّة من الأراضي الفارسيّة، وأعاد الفرس إلى البيزنطيّين صليب الصلبوت[1].

وهكذا اختتمت الدولتان فصلًا من قصة حروبهما المتكرّرة، اتّسم بتبادل الطرفين اجتياح أراضٍ واسعة ووصول جيوشهما إلى مشارف عاصمتيّ الدولتين مُبدين الحِرص والنبل، ومثقلين كواهل من بقيَ على قيد الحياة بالنهب والسلب، فضلًا عمّا استنزف من مواردهم للنهوض بالأعباء الحربيّة، وظلت كل من بيزنطة وفارس تئنّ من الخور والإنهاك، وبقيت حروبهم معلّقة عند هذا الحدّ إلى أن أتم الإسلام فصلهما الأخير، فأدخل فارس المثخنة الجراح في حظيرته واقتطع من الدولة البيزنطيّة، أسمى أقاليمها في حوض البحر المتوسط الشرقيّ مصر والشام

(1) Bury: **A HISTORY OF THE LATER ROMAN**, Vol 2, P 244.

اللتان ذاقتا كل أصناف العذاب والاضطهاد الدينيّ على أيدي البيزنطيّين، لا سيّما بعد انتهاء الحروب الفارسيّة[1].

ثانياً. لبنان في المصادر العربيّة الإسلاميّة

أمّا من ناحية المصادر العربيّة الإسلاميّة، فيذكر اليعقوبيّ في كتابه «**البلدان**»، أنّ أجناد بلاد الشام أربعة وهي: جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين. وكل جند من هذه الأجناد كانت له كور تتبعه إداريًّا وعسكريًّا. فمن جند دمشق وكورة جبل الجليل وكورة سنير وكورة بعلبك وكورة لبنان صيدا، وكورة أطرابلس (طرابلس) وكورة عرقة وكورة جبيل وصيدا وبيروت[2]. أما صور فهي من سواحل جند الأردن[3].

وبما أنّ اليعقوبيّ ذكر مدينة صور مرتين، الأولى مع «لبنان»، والثانية مع كور جبيل وبيروت، فهذا يشير إلى أنّ صيدا كان لها حدود مع كورة صور التي تنتمي لجند الأردن، وإنّ الجزء الشرقيّ منها تابع للجبل بحيث يكوّنان كورة «لبنان ـ صيدا»، فيما يتبع الشريط الساحليّ لمدينة صيدا لكورة صيدا وبيروت وجبيل، وعليه يكون اليعقوبيّ قد اتّفق مع روايتيّ المؤرخين البيزنطيّين نيكوفوروس وثيوفانيس فيما يتعلّق بالخارطة الجغرافيّة للبنان، مع فارق بسيط هو الترتيبات التي حصلت في مدينة صيدا[4].

وتضيف سرحان في هذا الصدّد: «أما فيما يتعلّق بالشريط الساحليّ الذي اعتبرته المصادر العربيّة جزءًا من جند دمشق، نرى أن ثيوفانيس لم يعترف بتلك التقسيمات

(1) إبراهيم العدويّ: **الإمبراطوريّة البيزنطيّة والدولة الإسلاميّة**، طبعة نهضة مصر، لا ت، ص 25؛ فتحي عثمان: **الحدود الإسلاميّة البيزنطيّة بين الإحتكاك الحربيّ والإتصال الحضاريّ**، الدار القوميّة للطباعة والنشر، مصر، لا ت. ص 126.

(2) اليعقوبيّ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: **كتاب البلدان**، منشورات دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط 1، 1988، ص ص 87 ـ 88.

(3) البلاذريّ، أحمد بن يحيى: **فتوح البلدان**، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العربية، بيروت، ط 1، 1987، ص 124؛ عمر تدمري: **لبنان من الفتح الإسلاميّ حتى سقوط الدولة الأمويّة، 13 ـ 132هـ/ 634 ـ 750م**، جرّوس برس، طرابلس، 1990، ص 232 ـ 241.

(4) كوثر سرحان: **لبنان في المصادر اليونانيّة البيزنطيّة (من القرن 7 حتى القرن 10)**، طرابلس، 2016، ص 92 ـ 93.

الإداريّة الإسلاميّة، وقد أطلق على الساحل من اللاذقيّة إلى ما بعد جنوب صور إسم بلاد فينيقيا، ولبنان في المصادر البيزنطيّة هو الجبل وفنيقيا هي الساحل»[1].

ثالثاً. الأطماع البيزنطية في لبنان أيام هرقل

مع تولّي هرقل عرش القسطنطينيّة، أرسل وفدًا لملك الفرس ليصالحه، لكنّ الأخير رفض وأرسل قواته إلى شرقيّ المتوسط فاستولت على إنطاكية وقتلت بطريركَها، واستولت على حمص، ثمّ توغّلت في وسط آسيا الصغرى، ووصلت إلى قيصريّة قباذوقيا لمنع أي إمداد يمكن أن ترسله القسطنطينيّة للجزيرة الفراتيّة ولمدن شرقيّ المتوسط[2]. بعدها توجّهت قوات الفرس إلى العمق الفلسطينيّ واستولت على قيصريّة وفلسطين ومنها توجّهت إلى القدس سنة 615 م، ووضعت يدها على الصليب المقدس، وأسرت البطريرك زكريا سنة 619م، واستطاعت الوصول إلى الإسكندرية، إلّا أن ملك القسطنطينية هرقل الأرمنيّ (610م – 641م)، إستطاع لملمة الجيش البيزنطيّ معتمدًا بشكل مباشر على الأرمن، واستطاع السيطرة على الشرق والتقدّم نحو فارس واستعادة الصليب المقدس[3].

وبهذا يكون هرقل قد أعاد لبنان من جديد لسلطة الأباطرة البيزنطيّين، لكن سرعان ما تحركت الجيوش العربيّة الإسلاميّة من الجزيرة العربيّة باتجاه بلاد الشام بعامّة، ووضعت يدها على لبنان بالتدرّج ليصبح بذلك خاضعاً للخلافة الإسلاميّة، كما يقول البلاذريّ[4].

إنّ تاريخ الصراع بين المسلمين والبيزنطيّين (الروم)، مليء بمواقف الخداع الحربيّ الذي يقوم به الطرفان في عمليات الحصار والقتل وغيرها، فمن المحتمل أنّ

---

(1) كوثر سرحان، **لبنان في المصادر اليونانيّة البيزنطيّة**، مرجع سابق، ص 93.

(2) أغابيوسبن قسطنطين المنبجيّ: **المنتخب من تاريخ المنبجي**، تحقيق عمر تدمريّ، دار المنصور، طرابلس، 1986، ص 25.

(3) أغابيوسبن قسطنطين المنبجيّ: **المنتخب من تاريخ المنبجيّ**، مصدر سابق، ص 27.

(4) البلاذريّ: **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ص 133.



طرابلس سقطت بيد المسلمين قبل قيصريّة، لكنّها لم تلبث أن عادت تحت السيطرة البيزنطيّة بعد أن سيطروا على بعض السواحل كما يقول البلاذريّ[1].

وفي العام 23 هـ/ 644م، أي بعد انتهاء ولاية هرقل، استعاد البيزنطيّون بعض المدن الساحليّة، أيام خلافة عمر بن الخطاب، وأن يتشبّثوا بها لمدة سنتين كاملتين، ومن الواضح أنّ تلك المدن كانت بيروت وجبيل وغيرها، وساعدهم في ذلك كثرة الجالية البيزنطيّة الموجودة في طرابلس، وراحت الأجناد العربيّة تدفعهم حتى ارتدّوا إلى طرابلس التي بقيت كآخر معقل لهم في سواحل الشام.

ولذلك كان لا بدّ من فتح طرابلس بعد أن أطبق عليها الحصار من كل الجهات، وأصبحت محاطة من جهات ثلاث، فمن الشمال استولى المسلمون على عرقة، ومن الجنوب دخلت جبيل في حوزتهم، ومن الشرق سقطت بعلبك في أيديهم، وبات فتح طرابلس أمرًا لا بدّ منه، إذ ليس من المعقول أن يتغاضى العرب عن وجود قاعدة بيزنطيّة تهدّد الفتوح العربيّة، لا سيّما أن البيزنطيّين كانوا لا يزالون يتفوّقون على العرب بأساطيلهم البحرية، إضافة إلى بقاء الساحل الإسلاميّ عُرضة لغزواتهم[2].

وبعد أن حصل معاوية على موافقة الخليفة عثمان بن عفان، بفتح ما تبقّى من مدن الشام الساحليّة، قرّر معاوية إرسال القائد الصحابيّ سفيان بن مجيب الأزديّ إلى طرابلس، وعسكر بجيشه على بعد خمسة أميال منها، في مرج كان يُعرف بمرج السلسلة عند سفح جبل تربل شماليّ شرقيّ المدينة، وباشر حربه ضد الروم. فبنى أول حصن للمرابطة واستخدمه للهجوم، وقطع المادّة عن أهل طرابلس من البحر وغيره، وقد دبّ اليأس في نفوس أهل المدينة بعد أن دام الحصار حوالى شهر، ونفذت المؤن فكتبوا إلى الإمبراطور قنسطانز الثاني الذي لم يستطع مساعدتهم، فاكتفى بإرسال مجموعة من المراكب تسللت ليلًا إلى ميناء المدينة حتى لا يراها المسلمون، ونرجّح أنّها رست عند

(1) ص 152. البلاذريّ: **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ص 152.

(2) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ والحضاريّ عبر العصور**، دار الإيمان، طرابلس، ط 2، 1984، ج 1، ص 89.

الجزر في البحر، فركبها الروم وأخلوا المدينة مع أمتعتهم وأبحروا تحت جنح الظلام[1].

دخل المسلمون طرابلس، وأسكن معاوية فيها جماعةً من يهود الأردن، لملء الفراغ، ووضع عليها عاملًا وفريقًا من الجند، وكان يقفل عنها في الشتاء عندما تعلو مياه البحر وتصبح الملاحة صعبة، ويعود إليها في الربيع، فتنبّه الروم لذلك زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، فأرسلوا بطريقًا يدعى قناطر، مع جماعة من الجند طالبًا الأمان، وتقرّب من حاكمها حتى استأنس به عارضًا عليه تأدية الجزية والخراج، وتحيَّن المذكور زمن تقلّص عدد المقاتلين، فأغلق المدينة وقتل عاملها وأسر الجنود اليهود، ولكنّ مغامرته انتهت بالفشل، وعادت المدينة إلى أيدي المسلمين، ولربما يشار هنا إلى السقوط الثاني[2].

رابعاً. الغزوات البحريّة في خلافة معاوية

وجّه معاوية جيشه إلى بلاد الروم يغزو الصائفة حتى بلغ القسطنطينيّة، وهزمهم وضرب بابها بعمود حديد كان في يده فهشّمه حتى انخرق[3].

وفيما بعد تتابعت الغزوات الإسلاميّة على سواحل بلاد الشام، وتناوب على غزوة البحر عدد من القادة الذين تولّوا غزوة رودوس، وأقاموا فيها سبع سنين، وفي سنة 55هـ/ 675 م، قام يزيد بن شجرة الرهاويّ بغزوة في البحر[4].

أمّا ردّة الفعل البيزنطيّة؛ فقد تجلّت بتسيير أسطول كبير من السفن، سنة 57 و58هـ/ 677م، فتصدّى لهم الأسطول الإسلاميّ بقيادة يزيد الرهاويّ، وتمكّنوا من

---

(1) لمزيد من التفاصيل: راجع ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن: **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين أبي سعد عم بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 1995، ج 21، ص 365.

(2) البلاذريّ، **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ج 2، ص 150 ـ 151؛ أغابيوسبن قسطنطين المنبجيّ: **المنتخب من تاريخ المنبجيّ**، مصدر سابق، ص 60 ـ 61؛ ابن عساكر: **تهذيب تاريخ دمشق**، دار المسيرة، بيروت، لا ت. ج 6، ص 185؛ الياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى من الفتح العربيّ الإسلاميّ إلى الإحتلال الفرنجي**، بيروت، ط 1، 2003، ج 1، ص 26.

(3) اليعقوبيّ: **تاريخ اليعقوبيّ**، طبعة دار صادر، بيروت، 1960، ج 2، ص 229 ـ 240.

(4) خليفة بن خياط، أبو عمرو العصفري: **تاريخ خليفة بن خيّاط**، تحقيق د. أكرم العمريّ، ؤسسة الرسالة، بيروت، 1977، ص 223.

قتله مع أصحابه، وهزموا الأسطول الإسلاميّ وانكشف الساحل لهم فنزلوا مدينتيّ صور وصيدا، واستطاعوا اقتحامهما والقضاء على كلّ مقاومة فيهما، ثم تسلّقوا جبال لبنان واستولوا عليها، وجاؤوا بالجراجمة فبثّوهم فيها من جبل الجليل شمال فلسطين إلى الجبل الأسود شمال الشام، فشكّلوا بذلك حاجزًا يفصل بين القوات العربيّة في البلاد الداخليّة وقواتهم في الساحل، ما اضّطر معاوية لرفع حصاره عن القسطنطينيّة وعقد هدنة مع الإمبراطور قسطنطين الليحانيّ الرابع، مدتها ثلاثون عامًا، إلتزم بموجبها معاوية بأن يدفع في كلّ سنة عشرة آلاف قطعة ذهبيّة ومائة عبد وخمسين فرسًا، بحسب رواية شدرانس[1].

وفي سنة 65هـ/ 685م، تولّى عبد الملك الخلافة، وتوفّي الإمبراطور قسطنطين الليحانيّ الرابع، وتولّى العرش ابنه المعروف بالأخرم، وهو في السادسة عشرة من عمره، فنقض اتفاقية الصلح مع العرب بتحريض من بعض رجال دولته، إذ كانوا قد طلبوا إلى أبيه أن يبادر إلى غزو بلاد الشام. وفي سنة 69هـ/ 689م، أخرج الإمبراطور يوستنيانوس خيل الروم إلى جبل اللكام بقيادة لاو بن فلنط، حتى وصلت لبنان وانضوى إليها جماعة من الجراجمة والأنباط عبيد أباق من عبيد المسلمين[2].

ومن ناحية أخرى، توجّه الأسطول البيزنطيّ بقيادة بطريق يدعى قلقط، قاصدًا ساحل الشام، فأرسى عند وجه الحجر (رأس الشقعة)، جنوبي طرابلس، ونزل الجيش إلى الساحل ثم إلى جبل لبنان، وتوغّل قادته إلى أقصى الجبل حيث اتصلوا بخيل الروم عند إنطاكيا وغيرها من الجبل الأسود، فأعظم المسلمون ذلك حتى أنّهم أصبحوا لا يستطيعون التجوّل في الجبال وغيرها من تلك النواحي إلّا بالساحل،

(1) يوسف الدبس: **الجامع المؤصّل في تاريخ الموارنة المفصّل**، طبعة بيروت، 1905، ص 35؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 122 ـ 123؛ أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، منشورات المكتبة البولسية، جونية، ط 2، 1988، ج 1، ص 260، (لكنّه يسميّه قسطنطين الثالث)؛ إلياس القطّار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ص 39.

(2) البلاذريّ: **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ص 189؛ الأباق كان أصلهم من اليونان، راجع: عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج1، ص 130، الحاشية رقم 24.

ثم استفحل أمرهم فغلبوا على الجبال كلها من لبنان وسَنْيَر[1]، وجبل الثلج وجبال الجولان، وأقاموا الممالح وقطعوا السبل ووصل الأمر بهم إلى أنّهم كانوا ينادون عبد الملك بن مروان ليلاً من جبل دير مُرّان[2]، ووصلت بعض السفن البيزنطية إلى قيساريّة وفلسطين فشعشعوها وهدّموا مسجدها، كما خرّبوا مدينة عسقلان وأخرجوا أهلها منها[3].

وفي عهد الإمبراطور يوستنيانوس الثاني، يذكر رستم نقلًا عن كتاب اسطفان الدويهيّ المسمّى «**تاريخ الطائفة المارونيّة**»، أن الإمبراطور يوستنيانوس لم يكتفِ بما فعل، بل جيّش على المردة جيشًا جرارًا بقيادة موريق وموريقيان، بعث به سنة 694 م، إلى لبنان، فقتل رهبان دير مار مارون على نهر العاصي، وحلّ في الكورة بين أميون والناووس، وتدفّق الجبليون عليهم من أعالي الجبال فقاتلوهم حتى قتلوا أكثرهم. ولعلّ هذه الحوادث وقعت سنة 689م، عندما قام يوستنيانوس بتنفيذ شروط معاهدته مع عبد الملك سنة 694 م، كما تقدّم[4].

خامساً. البيزنطيون يهاجمون طرابلس

في الوقت الذي تحرّك فيه الجراجمة مع الروم في عهد الوليد، تعرّضت طرابلس لحملة بحريّة، انفرد ابن عساكر بذكرها، وتفصيل ذلك أن البيزنطيّين جهّزوا أسطولًا ضخمًا سيّروه إلى ساحل الشام بقيادة بطريق يدعى «دواميس»، فقصد ساحل لبنان وأرسى عند وجه الحجر وأمر القائد بترتيب خمسين سفينة للمرابطة في ذلك الساحل وحراسته وتأمين مؤخّرة بقية أسطوله وقواته التي تقوم بضرب حصار بحريّ لمنع أيّ أسطول قد يأتي من موانئ بيروت وصيدا وصور وعكّا لنجدة أهل طرابلس وللاستيلاء

(1) سنير بفتح أوله وكسر ثانيه، جبل بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة سنير. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله الرومي: **معجم البلدان**، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى بيروت، 1990، ج 2، ص 306.

(2) دير مُرّان بضم الميم وتشديد الراء بالقرب من دمشق. انظر: المصدر نفسه، ص 603.

(3) البلاذريّ: **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ص 189.

(4) أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 1، ص 265.

على أيّة سفينة تحمل الغذاء والقوت، واتفق مع قادة القوة المرابطة على إشارة بينه وبينهم، وهي أن يترقّبوا رؤية نيران مشتعلة من ناحية طرابلس، فإذا بدت لهم كان ذلك إيذانًا بفتح المدينة، ثم سار ببقية الأسطول إلى طرابلس، فوصل إلى الميناء في وقت كان فيه أسطول طرابلس قد خرج للغزو في البحر، وتولى سحيم بن المهاجر بتجميع السكان في المسجد، وخطب فيهم وحثّهم على الصبر والجَلَد والثبات أمام العدو، وأمر بإحصاء عدد الرجال المقاتلين الذين بلغوا **(150)** مقاتلًا، كما أمر بقياس الشرفات الواقعة بين الأبراج، ووضع خطّة لتوزيع عدد المقاتلين بين الشرفات والأبراج، ورأى سحيم أنّه لا يمكنه دفع الخطر البيزنطيّ إلّا عن طريق الخديعة وإظهار أن المدينة محصّنة وقوية بمقاتليها، وتنفيذًا لخطته هذه، أمر بإحضار أنواع من الثياب بألوان مختلفة، وقام بتوزيع الثياب من لون واحد على المقاتلين وأمرهم أن يظهروا للعدو، ثمّ عاد وألبسهم ثيابًا من لون آخر فصعدوا إلى البرج الثاني وأظهروا أنفسهم للعدو ولبثوا فترة، ثمّ نزلوا وبقي فيه عدد آخر من المقاتلين وعليهم قائد منهم، وهكذا فعل في بقية الأبراج والشرفات.

نجح سحيم في تدبيره، واستطاع خداع البيزنطيّين الذين رأوا أنّ من العبث بقاءهم في عرض البحر، فنزلوا إلى البرّ حيث كان يقع برج سفيان على مسافة ميلين بين الميناء والنهر، وقرروا حفر خندق بالقرب منه وبنوا عنده سورًا يحميهم من قذائف المنجنيق والنشاب، وعملوا على محاصرة المدينة من الشرق ومنع الإمدادات عنها، وأمدّتهم الجبال المجاورة بالأخشاب اللازمة. فصنعوا منها دبابات (برج متحرك) لحماية المهاجمين، وزحفوا بها نحو الباب الشرقيّ للمدينة، وصدموا بها البرج الشرقيّ، وإستطاعوا إحداث ثغرة فيه، غير أن أهل طرابلس استطاعوا صدّ المهاجمين بعد معركة طاحنة تمّ فيها أسر البطريق «دواميس»، ولم يتمكّن البيزنطيّون من اقتحام المدينة رغم فتح ثغرة في أحد أبراجها، إذ كانت الأبراج محصّنة بحيث يدخل بعضها إلى بعض ولا منفذ لها إلى المدينة، واضّطروا أن يتراجعوا إلى معسكرهم قرب النهر[1].

(1) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 20، ص 144؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 151 ـ 153.

سادساً. فشل البيزنطيين أمام سور طرابلس

بينما كان البيزنطيّون مقيمين على قتال المدينة وحصارها، أقبل والي بيروت وأمير الساحل أبو العلاء عبد الرحمن بن سليمان الكلبيّ، في جماعة من أهلها لنجدة أهل طرابلس(1)، كما قَدِمَ الصقر بن صفوان في ستة آلاف من أهل حمص، ونزلوا مرج السلسلة غربي جبل تربل، وتوجّهت فرقة من البيزنطيّين لقطع الطريق على أهل حمص، وخرجت طائفة أخرى إلى الكنيسة القائمة بظاهر طرابلس في الجهة الجنوبيّة الغربيّة للصلاة فيها، فوجدوا جماعة من اليهود يختبئون داخلها، فحجزوهم فيها وأشعلوا النيران في جنبات الكنيسة فمات من فيها حرقًا، وقد ارتفع لهيب النيران الدخان الأسود في الجو حتى رآه المرابطون من البيزنطيين عند وجه الحجر، الذين كانو يقطعون الطريق بين طرابلس وبيروت، فأقبلو بسفنهم نحو طرابلس ظنًا منهم أنّها سقطت بيد قائدهم، وما إن وصلوا إليها حتى علموا بوقوع البطريق دواميس في قبضة المسلمين فانحلّت عزائمهم، وتمكّن عبد الرحمن الكلبيّ والي بيروت من اجتياز العقبة التي كان يحرسها البيزنطيّون بعد أن أصيبت صفوفهم بالاضطراب، وأمر جماعة من قواته لتسير في الطليعة وتبشّر أهل طرابلس بوصول النجدة، وجعل على قيادتها سعيد الحرشيّ(2)، فتقدّم بقواته نحو المدينة وأشرف على مرتفع قريب بحيث يراه منه أهلها، وأشار إليهم بفتح باب المدينة وتقوّى بهم أهله واشتدت عزيمتهم واستبشروا بمن جاءهم من إخوانهم، ولمّا وجد البيزنطيّون أن حصارهم بات غير مجدٍ، لأنهم أصبحوا محاصرين من الشمال بجيش حمص ومن الجنوب بجيش بيروت ومن الغرب أهل طرابلس ومن وصل إليهم، فقرروا الانسحاب والعودة إلى بلادهم وتأمين سلامة خروجهم من مواقعهم، فبعثوا رسولاً إلى عبد الرحمن الكلبيّ يعرض عليه أن يتوسط لهم لإطلاق سراح قائدهم على أن يرحلوا إلى بلادهم فوافق

---

(1) اليعقوبيّ: **تاريخ اليعقوبيّ**، مصدر سابق، ج 2، ص 315؛ الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، ج 6، تحقيق أحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار إحياء التراث، مصر، 1963، ص 141، 349؛ إبن الأثير، عز الدين علي: **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، ط 1، 2012، ج 4، ص 138.

(2) ابن عساكر: **تهذيب تاريخ دمشق**، تحقيق عبد القادر بدران، دمشق، 1331هـ/ 1914م، ج 6، ص 164؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، ص 148.

بعد أن أخذ منهم عهدًا بأن «لا يغيروا على شيء من أرض المسلمين في عامهم هذا فرحلوا ومضوا»[1].

سابعاً. تبادل الغزو البحري بين العرب والبيزنطيين

في عهد الخليفة الأمويّ يزيد بن عبد الملك بن مروان جرت تقوية حصون اللاذقيّة وشحنها بالمقاتلين، ثمّ عاد البيزنطيّون في عهد هشام بن عبد الملك (105_125هـ/ 724_743م)، ونفّذوا غزوة إلى صور سنة 107هـ/ 726م، ووصلت سفنهم إلى باب مينائها، وكان «يزيد بن أبي مريم» مقلولًا عند اللقاء «فخرج إليهم خالد بن الحسفان الفارسيّ، فقاتلهم حتى أجبرهم على الهرب وطاردهم بسفنه، فأرست إحدى سفنهم على جزيرة قبالة صور واستولى عليها وأسر من فيها، وقد ادّعى يزيد بن أبي مريم في كتاب كتبه إلى هشام بن عبد الملك بأنه وجّه إلى الروم ابنه فهزمهم، ولكنّ صاحب البريد بطبريّا أكّد أنّ خالد الفارسيّ هو الذي خرج إليهم[2].

استمرت الغزوات البحريّة المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيّين من وإلى ساحل الشام في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ووصل البيزنطيّون في إحدى غزواتهم إلى بيروت، فهاجموا ميناءها واستولوا على سفينة جماعة من تجار مرسيّة[3]، وتقدّموا بسفنهم حتى قاربوا باب الميناء، فوقف أهل الميناء وهم يمسكون بأيديهم خوفًا ورهبةً حتى خرج إليهم أمير البحر الأسود بن هلال المحاربيّ، فصاح بهم وركب قوارب صغيرة وأجهد نفسه في طلب البيزنطيّين حتى لحق بسفنهم وأوقع بمقاتليها واستنفذ المركب والتجار[4].

---

(1) إبن عساكر: **تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 34، ص 402؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ج 1، ص 155.

(2) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ص 158.

(3) مرسيّة: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير إحتطها عبد الرحمن بن الحكم. ياقوت الحمويّ: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج 5، ص 125.

(4) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 9، ص 67؛ ابن عساكر: **تهذيب تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 3، ص47؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ص 42.

وفيما بعد، قرّر البيزنطيّون أن يغتنموا الوضع المضّطرب الذي كانت عليه بلاد الشام عندما بدأت الدولة الأمويّة تتهاوى أمام العباسيّين، إضافة إلى عدم استقرار الأمن في مدن الساحل، ولكن في (سنة 135هـ/ 753م)، جاء لمحاولة استيلاء البيزنطيّين على طرابلس، فقد ذكرت المصادر الإسلاميّة أن البيزنطيّين تمكّنوا من دخول طرابلس عن طريقة حملة بحريّة بمساعدة من نصارى لبنان، وأنّ الروم في قبرص هاجموا اللاذقيّة وطرابلس ودخلوهما سنة 140هـ/ 758م[1]، ثمّ تبع ذلك قيام النصارى بحركة تمرّد على الدولة العبّاسيّة استدعت نقل جماعة من التنوخيّين اللخميّين من شمال سوريا إلى وسط لبنان للحدّ من خطر المتمرّدين، لكنّ أسطولهم لم يطلِ الإقامة في طرابلس، حيث ارتدّ إلى قبرص، ولم تمدّنا المصادر التاريخيّة بتفاصيل أوسع عن تلك الغزوة[2].

ولعلّ هذا الغزو هو الذي شجّع أهالي المنيطرة وجوارها على الثورة، وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين والبيزنطيّين بقوا يتبادلون الغزو البحريّ، ففي سنة 174هـ/ 791م، غزا البيزنطيّون ساحل الشام دون تحديد المكان، فردّ المسلمون عليهم بغزوة في البحر[3].

وفي سنة 184هـ/ 800م، قصد البيزنطيّون ساحل بيروت، وجاءوا بسفنهم إلى عين التينة على ساحل البحر قرب ضريح الإمام الأوزاعيّ، وعادوا بعد أن أسروا الأمير عمر بن أرسلان اللخميّ مع ثلاثة من أصحابه وظلّوا في الأسر حتى فُودي بهم في سنة 188هـ/ 804 م[4].

ثامناً. جهاد طرابلس في العهدين الإخشيديّ والفاطميّ

بقيت البحريّة الإسلاميّة في ميناء طرابلس تشكّل قوّة رادعة للدفاع عن ساحل

(1) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ج 1، ص 171.

(2) ابن عساكر: **تهذيب تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 5، ص 341؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ص173.

(3) أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 1، ص 297.

(4) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ص 183؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ص 79.

الشام، وقد استعصت المدينة على أباطرة الدولة البيزنطيّة الذين جاؤوها بأنفسهم وقاومتهم لوحدها من بين كثير من مدن الشام التي استسلمت لهم، وكان من أولئك الأباطرة نقفور فوقاس الذي جاءها عندما تابعة للدولة الإخشيديّة.

أ. نزول نقفور فوقاس على طرابلس وحصاره عكا سنة 357 هـ / 968م.

كان لبنان من نصيب الإخشيديّن، وقد شهد في عهدهم حملة بيزنطيّة للفسيلفس نقفور فوقاس (م969ـ963) Nikephoros phokos، الذي تولّى عرش الإمبراطوريّة في 16 آب 963م، وكانت الدولة الإسلاميّة ضعيفة بسبب تنافس الفاطميّين والإخشيديّين والبويهيّين والحمدانيّين على اقتسامها، وصل نقفور إلى حلب فمعرّة النّعمان فكفرطاب فشيزر فحماة فحمص التي أخذ منها رأس القديس يوحنا، فعرقا في لبنان التي أسر أهلها بعد حصارها دام تسعة أيام، وأخذ خلقًا ومالًا كثيرًا، وأسر أمير طرابلس أبا الحسن أحمد بن نحريّ الأرغليّ الذي كان قد طرده أهل طرابلس منها لجوره، وكان موسرًا، ثم وصل إلى طرابلس فحاصرها برًا وبحرًا، لكنّه لم يفلح بأخذها، فخرّب المدن والقرى التي تجاورها وفي ساحل اللاذقيّة، وبعد رحيله عاد المسلمون إلى عرقا فسكنوها[1]. وفي هذا الصدد يضيف الهمذانيّ أنّه أخذ من بلدان الساحل مائة ألف شاب وشابّة[2]، وما أن ارتاح الإخشيديّون من الصراع مع البيزنطيّين حتى أرسل الخليفة الفاطميّ المعزّ قائد جيشه جوهر الصقلّي إلى مصر، فقضى على الدولة الإخشيديّة سنة 358 هـ/ 969م، وحلّت محلّها الخلافة الفاطميّة وسقط لبنان بيد

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **تاريخ الإنطاكيّ المعروف بصلة أوتيخا**، تحقيق عمر تدمري، جرّوس برس، طرابلس، 1990، ص 125ـ127؛ إبن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، ج 7، ص 285؛ أبو الفرج جمال الدين ابن العبريّ: **تاريخ الزمان**، تعريب الأب إسحق أرملة، قدّم له الأب الدكتور جان موريس فيّيه، دار المشرق، بيروت، 1991، ص 166؛ شمس الدين محمد الذهبيّ: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، (حوادث 351 ـ 380هـ)، تحقيق عمر تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط 1، 1993، ص32؛ أسد رستم: **كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى**، منشورات النور، 1958، ج 2، ص 152؛ عمر تدمريّ: **لبنان من قيام الدولة العباسيّة حتى سقوط الدولة الإخشيديّة**، جروس برس، طرابلس، ط 1، 1992، ص 136؛ وسام عبد العزيز فرج: **دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، طبعة القاهرة، 1982، ص 298.

(2) محمد بن عبد الملك الهمذانيّ: **تكملة تاريخ الطبريّ**، تحقيق ألبرت كنعان، المطبعة الكاثولكيّة، بيروت، ط 2، 1961، ص 147.

أحد قوّادهم جعفر بن فلاح، وكانت صور أول المدن التي سقطت بيدهم[1].

في الختام ومهما يكن من أمر، فإنّ مدينة طرابلس كانت المدينة الوحيدة التي لم يتيسر للإمبراطور البيزنطيّ نقفور فوكاس دخولها في تقدّمه الواسع بين المدن والحصون الشاميّة، كما كانت آخر نقطة يصل إليها في ساحل الشام حيث عاد منها باتجاه بلاده.

ب. حملة الإمبراطور تزيمسكس Johanes Tzimiskes المعروف بابن الشمشقيق، سنة 364 ـ 365 هـ/975 ـ 976 م.

قام الفسيلفس ابن الشمشقيق (كلمة أرمنيّة تعني قصير القامة) سنة 976م، بحملة على بلاد الشام في الوقت الذي دخل فيه هفتكين إلى دمشق، وكان الفاطميّون يعانون أيضاً من المتاعب أمام القرامطة، فاغتنم تزيمسكس فرصة الصراع المحتدم بين القوّتين الإسلاميّتين ليحقّق حلم الإمبراطوريّة في انتزاع بيت المقدس من المسلمين.

دخل تزيمسكس منطقة الثغور فاستولى على أكثرها، ودخل في طاعته أبو بكر بن الزيّات صاحب طرطوس في عدد كبير من أهلها، وتبعته عدّة بطون من العرب، ثم اتّبع الطريق الذي سلكه سلفه نقفور فوقاس في حملته على بلاد الشام، فنزل على حمص وافتتحها وفرض على أهلها الجزية[2]، ثمّ سار عبر مجرى نهر العاصي إلى بعلبك فخرّبها وأخذ جماعة من أهلها، فهزم هفتكين وهادنته دمشق[3].

فطلب منهم مالًا كثيرًا، وكذلك هفتكين صاحب دمشق الذي قرر تسليمها على أن يدفع في تقرير مائة ألف درهم عليها، وقد أبدى هفتكين الإذلال والخضوع أمام الإمبراطور، وفيما بعد سلّمه القائد الفاطميّ ابن الصمصامة، وكان الإمبراطور في

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 144 ـ 145.

(2) ؟؟؟ ابن حوقل: **كتاب صورة الأرض**، طبعة دار صادر نقلاً عن طبعة ليدين، 1928، ص 163.

(3) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 162؛ ابن ظافر الأزديّ: **أخبار الدول المنقطعة**، قدّم له وعقب عليه أندريه فريه، المعهد العلميّ الفرنسيّ، القاهرة، 1972، ص 35؛ أبو بكر بن عبد الله ابن أيبك الدوداري: **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ط 1، 1961، ج 6، ص 170؛ أسد رستم: **كنيسة مدينة الله**، مرجع سابق، ج 2، ص 155؛ عمر تدمري: **لبنان من قيام الدولة العباسيّة**، مرجع سابق، ص 137.

عين الجر (عنجر)، وإزاء ما أظهره هفتكين من ضروب الطاعة والإذلال والخضوع أمام الإمبراطور، فقد وهب ما أخذه من المواثيق التي وقّعها أهل دمشق بتأدية المال كما أطلق الرهائن[1].

تابع تزيمسكس زحفه جنوبًا، فاستولى على بانياس ثم أخذ طبريّة وعيّن عليها حاكمًا، ووصل إلى الناصرة فاستسلمت له وقد أخضع في طريقه بيسان وقيسارية وعكا[2].

لكن تزيمسكس بدلًا من أن يواصل زحفه نحو بيت المقدس، انقلب فجأة ليعود إلى مدن لبنان الساحليّة الشماليّة، وعند وصول خبر الإنزال البحريّ الفاطميّ في بيروت على يد نصير الخادم غلام المعز[3]، وصل إلى صيدا التي استسلمت له على يد أبي الفتح بن شيخ[4]، وقد امتنعت عليه بيروت حيث لقيه نصير غلام المعز فهزمه وأسره[5]، وأخذ جبيل عنوة فنهبها كما نهب بيروت، ثم قصد طرابلس التي قاومته بضراوة واصطدم بعقبة، وقد ضربت هذه المدينة مثلًا رائعًا في نضالها وصمودها وتاهت بذلك على جميع مدن الشام التي استسلمت وخضعت للإمبراطور البيزنطيّ حيث تكاتف أهل طرابلس مع الجند الفاطميّ بقيادة ريّان الخادم في الدفاع عن مدينتهم واستعدّوا للقتال، وتمتّعت تحصينات المدينة بالمناعة والقوة بحيث تفوّقت على

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج1، ص 145؛ أبو يعلى حمزة، ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، نشره أمدروز، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1908، ص 14.

(2) وسام فرج: **دراسات في حضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، مرجع سابق، ص 301؛ Shlemberger, L' ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol1, Paris, 1896- 1905, p 305

(3) ـ شهاب الدين أحمد النويريّ: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة ط1، 1986، ج 28، ص 150؛ ابن أيبك الدواداريّ: **كنز الدرر**، مصدر سابق، ج 6، ص 170؛ وسام فرج: **دراسات في حضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، مرجع سابق، ص 301.

(4) ـ ابن القلانسيّ: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 26؛ ابن العبريّ: **تاريخ الزمان**، مصدر سابق، ص 68.

(5) ـ سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 162؛ محمد بن عبد الملك الهمذانيّ: **تكملة تاريخ الطبريّ**، مرجع سابق، ج 1، ص 225؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 14؛ ابن أيبك الدواداريّ: **كنز الدرر**، مصدر سابق، ج 6، ص 171؛ أسد رستم: **كنيسة مدينة الله**، مرجع سابق، ج 2، ص 155؛ عمر تدمريّ: **لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيّين**، دار الإيمان، طرابلس، ط 1، 1994، ص 21.

تحصينات بيروت وصيدا، وزاد من قوة المدينة وصمودها وجود الأسطول الفاطميّ المرابط في الميناء، في حين لم يكن لدى تزيمسكس سفن تساعده في حملته[1].

ولمّا رأى تزيمسكس حصانة الميدان وعناد أهلها، عمد إلى بناء حولها، ورفع عليها العرادات والمناجيق، وأقام مُحاصرًا لها حوالي أربعين يومًا[2]، يقاتل أهلها ويقاتلونه حتى ضاق ذرعًا بمقاومتها، ولما لم يجد أي وسيلة لامتلاكها؛ قرّر الإنسحاب بعد أن أمر بتخريب ربضها والمرج المحيط بها، كما فعل قبله الإمبراطور نقفور فوكاس قبل سبع سنوات، وكان مرج طرابلس يشتهر بخصبه ووفرة إنتاج مزروعاته، وعن ذلك يقول تزيمسكس في رسالته: «ولقد قلبنا إقليم طرابلس كلّه رأسًا على عقب مخرّبين فيه تخريبًا كاملًا الكروم وأشجار الزيتون والحدائق، وأينما مررنا كنّا نشيع الدمار والحزن»[3]. وكان تزيمسكس بعمله التخريبيّ هذا يُعبّر عن غضبه وسخطه وروح الانتقام التي تملّكته إثر فشله أمام أسوار طرابلس.

على كل حال، غادر تزيمسكس إقليم طرابلس باتجاه الشمال واستولى على بانياس، كما تسلّم حصنيّ برزيه وصهيون، ثم جبلة التي أسكن فيها عشرين ألف شخص من أهالي الشام، ورحل أخيرًا إلى إنطاكيا، ومنها إلى القسطنطينيّة حيث قضى نحبه سنة 365هـ/ 976م، ومات في السنة عينها الخليفة الفاطميّ المعزّ لدين اللّه، وقيل أيضًا أنّ تزيمسكس مات مسمومًا بعد أن كان مُنافساه باسيل وقسطنطين قد دسّا له السمّ وهو يحاصر طرابلس[4].

---

(1) إبراهيم العدويّ: **الإمبراطوريّة البيزنطيّة والدولة الإسلاميّة**، مرجع سابق، ص 107؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 269؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطمية**، مرجع سابق، ص 23.

(2) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 162؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 14؛ ابن ظافر الأزديّ: **أخبار الدول المنقطعة**، مصدر سابق، ص 35؛ شهاب الدين أحمد النويريّ: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصدر سابق، ج 28، ص 151؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطمية**، مرجع سابق، ص 23.

(3) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 272؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطمية**، مرجع سابق، ص 23.

(4) ظهير الدين الروذراوريّ: **ذيل كتاب تجارب الأمم مع نخب من تواريخ شتّى**، نشر أمدروز، مصر، 1916، ص 13؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 14؛ تقي الدين أحمد المقريزيّ: **إتعاظ الحنفاء بأخبار**

تاسعاً. حملات باسيل الثاني

وبما أنّ طرابلس كانت المدينة الوحيدة التي استعصت على الإمبراطور تزيمسكس في حملته الكبرى، فقد ظلّت مصدر قلق البيزنطيّين، ولذا اهتمّ الإمبراطور باسيل الثاني (416ـ365 هـ/ 975 ـ 1025م)، بغارة على طرابلس سنة 365هـ/ 976م، فأمر في السنة الأولى من حكمه القائد ميخائيل البرجيّ (بورتزيس) رئيس إنطاكية وحصن بغراس، بغزو المسلمين، فأغار على طرابلس وغنم من حولها غنائم كثيرة، ولما لم ينجح بالاستيلاء على المدينة عاد إلى إنطاكيا وقام بجمع العساكر من جديد للغزو ثانية[1].

وبعد أن تمكّن القائد نزّال من القضاء على حركة منير الصقلبي واستطاع أن يعيد السيطرة الفاطميّة على دمشق وجّه الخليفة الفاطميّ العزيز اهتمامه نحو حلب، فأمر منجوتكين بالمسير بجيشه للاستيلاء عليها والقضاء على الحكم الحمدانيّ الذي شمل قسمًا من شمال الشام وشرقها عند حدود بيزنطة، وعندما علم سعيد الدولة أبي الفضائل الحمدانيّ صاحب حلب بالزحف الفاطميّ، بعث إلى إمبراطور الروم باسيل الثاني يستنجد به، فسارع لنجدته خوفًا من سقوط حلب بأيدي الفاطميّين، وكتب إلى قائده في إنطاكيا ميخائيل البرجيّ الذي أعيد إليها بعد هزيمة كرمروك (والي اللاذقيّة)، ليصدّ الزحف الفاطميّ، غير أنّ منجوتكين تغلّب على البرجيّ وهزمه، وشقّ طريقه إلى حلب، فاستعصت عليه حتى نفذت منه الأقوات فاضطر للعودة إلى دمشق. وقد أثارت عودة منجوتكين غضب الخليفة الفاطميّ العزيز بالله الذي كان مصمّمًا على انتزاع حلب مهما كلّف الأمر، لذا أمره بالعودة إلى محاصرتها.

عاد منجوتكين إلى حلب، وعاد سعيد الدولة الحمدانيّ يستنجد بالإمبراطور باسيل الثاني من جديد، وكتب له يحذره ويخوّفه بقوله: «متى أُخذت حلب أُخذت

الأئمة الفاطميين الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2001، ج 1، ص 275؛ وسام فرج: **دراسات في حضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، مرجع سابق، ص 302.

(1) ـ سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 147؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطمية**، مرجع سابق، ص 37.

إنطاكيّة، ومتى أُخذت إنطاكيّة أُخذت القسطنطينيّة»، وقد أحدثت هذه الرسالة وقعًا شديدًا لديه، وأدرك الأبعاد الخطيرة التي ستنتج فيما لو سقطت حلب بيد الفاطميّين، وعلى الرغم من أن الإمبراطور باسيل كان مشغولًا بالقتال في الجبهة البلغاريّة، قرّر المضيّ بنفسه إلى حلب، فقصد عاصمته القسطنطينيّة، ومن هناك اتّجه على رأس جيش ضخم قوامه أربعين ألفًا[1]، عبر به إقليم الثغور حيث انضمّت إليه مجموعات كبيرة من عساكرها ووصل إلى إنطاكيّة، فرافقه ميخائيل البرجيّ بعساكره ورافقه قائده مليسينوس، وعندما اقترب من حلب، رفع منجوتكين حصاره عنها، وأحرق الخزائن والأسواق والأبنية التي استحدثها في ظاهر المدينة، ورحل منهزمًا إلى دمشق في آخر ربيع الأول 385هـ/ نيسان 995م، ولما وصل باسيل إلى حلب، خرج إليه سعيد الدولة ولؤلؤة الجراحيّ، وجدّدا معاهدة التحالف بين القسطنطينيّة وحلب، وأقام باسيل فيها يومين ثم رحل عنها في اليوم الثالث، فنزل واستولى على شيزر وحمص وكذلك رفنيه ونهب منها سبيًا كثيرًا وغنم وأحرق، وفي طريقه إلى طرابلس أغار على عسكره جماعة من العرب فأسر عدداً منهم، وواصل سيره حتى وصل إليها في شهر ربيع الآخر 385هـ/ أيار 995م، وحاصرها فراسله واليها ابن نزّال، إلى أن وعد أهلها بالإحسان إنْ هم ثبتوا على ما يكون بينهم وبينه من العهد، فخرج إليه ابن نزّال في جمع من أهلها لإبرام الإتفاق مع الإمبراطور البيزنطيّ، لكنّ قاضي المدينة تزعّم حركة الرفض وأبى أن تسلّم طرابلس للبيزنطيّين وقاد حملة مضادة ضد والي المدينة ومن معه وانضمّ إليه عسكرها وأهلها مُنادين بالجهاد وقتال العدو وطرد واليهم من بين ظهرانيهم، واتخذ قرارًا بتعيين والٍ آخر مكانه، ولما أراد الوالي العودة إلى البلد أغلق أهلها الباب في وجهه ومنعوه من دخولها، ثمّ أخرجوا عياله إليه واستعدوا للقتال، فأقام باسيل محاصرًا لطرابلس «نيّفًا وأربعين يومًا»، وبذل قصارى جهده لفتحها، ولكنه لم يستطع

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 225؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 70؛ ابن العبريّ: **تاريخ الزمان**، مصدر سابق، ص 73؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 1، ص 285؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 284؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّين**، مرجع سابق، ص37؛ Schlemberger, L' ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol8, PP 86 - 89

أن يفتح ثغرة في أسوارها أو ينال من تحصيناتها، ولمّا لم يجد فرصة في تملّكها إرتدّ عنها خائبًا، وكان باسيل قد ملك أيضًا عرقا وهدمها وانصرف عنها، ثم عاد المسلمون وعمّروها[1].

وعلى الرغم من الاختلاف الموجود في مضمون روايتيّ الإنطاكيّ والمقريزيّ، فإن الإثنين لم يحدّدا سبب الموقف المتخاذل الذي وقفه ابن نزّال وبعض وجوه طرابلس، بالرغم من أن المدينة صعبة المنال، بدليل أنّه رغم انحياز الأخير ومن معه إلى جانب الروم، وهم أدرى بعورات المدينة، فإنّ باسيل بجيشه الذي ناهز الخمسين ألفًا لم يجد سبيلًا لامتلاكها. وقد وصف المؤرّخ ابن القلانسيّ مناعة ثغر طرابلس فقال: «هو بريّ بحريّ متين القوة والحصانة شديد الامتناع على منازله»[2].

وليس من الواضح إن كان ابن نزّال قد حاول أن يخرج عن طاعة الخليفة الفاطميّ ويُخضع طرابلس للسيادة البيزنطيّة، أو كانت تلك مناورة منه لتأمين المدينة وأهلها ودفع باسيل عنها دون قتال. وعلى أيّة حال فإن طرابلس ثبتت على ولائها للدولة الفاطميّة وعصمت نفسها من البيزنطيّين مرّة أخرى.

وتتابعت غزوات الروم الفاشلة على طرابلس، فكانت غزوة في السنة ذاتها سنة 383هـ/ 993م، أُسر فيها الكثير من أهلها، ثم بعد ثلاثة أشهر تمّ غزو عرقا فُسبي جماعة منها، وأخرى في سنة 385 و 386هـ/ 969م، لم ينتج عنها إلّا التخريب، أما ردّة فعل الفاطميّين على ذلك، فكانت في تجهيز الأسطول البحريّ الذي باءت محاولاته بالفشل، وبعد ثورة علّاقة الذي استغلّ ضعف الدولة الفاطميّة ودخول البيزنطيّين على خطّ الصراع في صور لإبعادهم عن المنطقة، سار ابن الصمصامة والي دمشق، إلى أفاميا لقتالهم، يشاركه في ذلك القاضي ابن حيدرة من طرابلس وواليها منصور الصقلّيّ، ما

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 229 ـ 230؛ الروذراوري: **ذيل تجارب الأمم**، مصدر سابق، ج 3، ص 220 ـ221؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 72 ـ 73؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، ج 7، ص 497؛ ابن العبري: **تاريخ الزمان**، مصدر سابق، ص 73؛ الذهبي: **تاريخ الإسلام**، مصدر سابق، ص 10؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ج 1، ص 126؛ عمر تدمري: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 285.

(2) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 74.

اضّطر علّاقة أن يستنجد بالإمبراطور البيزنطيّ باسيل الثالي ووعده بتسليمه البلد[1]، فأنفذ إليه عدة مراكب، وعندما وصلت ساحل صور، تصدّت لها السفن الفاطميّة ودارت معركة احتدم فيها القتال الشديد وظفر المسلمون بالبيزنطيّين، ولمّا عاين أهل صور ما حصل لمراكب البيزنطيين التي جاءت لنجدتهم ضعفت نفوسهم وعجزوا عن دفع الجموع المحاصرة لهم برًا وبحرًا، وشعر الفاطميّون بانهيار معنويات أهل صور، فدخلوا المدينة وقبضوا على علّاقة وبعض أصحابه بعد أن تحصّنوا في بعض الأبرجة، ونهبت المدينة، وحُمِلَ علّاقة إلى مصر مقيّدًا، وقد ألبس طرطورًا من رصاص ثم سلخ جلده وأعدم مع جماعة من أحداث مصر، وأُعطيت ولاية صور لابن ناصر الحمدانيّ وذلك في شهر جمادى الآخرة 388هـ/ حزيران 998م[2].

سار ابن الصمصامة بإزاء الروم الذين كانوا يحاصرون حصن أفاميا، حتى اضطر أهله إلى أكل الجيف والكلاب، ونزل بمن معه، وكان يفصل بينه وبين الروم نهر العاصي المعروف بالنهر المقلوب، ونشب القتال، واستطاع الروم أن يحقّقوا نصرًا على المسلمين عندما هزموا قلب الجيش، ثم هزموا الميسرة وفيها ميسور الصقلبيّ والي طرابلس، ثم لحقتها الميمنة وفيها ابن الصمصامة، وتفرّقوا على طريق جوسية إلى بعلبك، ولكن مقتل داميانوس المفاجئ على يد رجل كرديّ يعرف بابن الحجر قلب الموقف رأسًا على عقب، فعاد المنهزمون إلى القتال وأحاطوا بالروم وأنزلوا بهم شرّ هزيمة يوم الثلاثاء 21 رجب 388هـ/ 19 تموز 998م[3].

وهكذا خابت آمال باسيل في إضعاف النفوذ الفاطميّ، فطلب عقد هدنة مع الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله الذي لم يستجب لرأيه، فعقد باسيل العزم على

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 234؛ عمر تدمري: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 296؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ج 1، ص 127.

(2) شهاب الدين أحمد النويريّ: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصدر سابق، ج 28، ص 28، ص 174؛ المقريزيّ: **إتّعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 1، ص 353؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 296 ـ 297؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّين**، مرجع سابق، ص 48 ـ 51؛ إلياس القطار: **لبنان من الفتح العربيّ**، مرجع سابق، ج 1، ص 127.

(3) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 84 ـ 85؛ ابن العبريّ: **تاريخ الزمان**، مصدر سابق، ص 73.

الخروج بحملة جديدة إلى الشام لاسترداد هيبته، بعد مقتل قائده داميانوس وهزيمة قواته[1].

عاشراً. حملة الإمبراطور باسيل الثانية (389هـ/999م)

جاء ردّ البيزنطيّين بعد مقتل دامیانوس، بحملة جديدة على بلاد الشام، ففي سنة 389هـ/ 99م، خرج الإمبراطور باسيل مجددًا، ونزل بجسر الجديد وسار إلى أفاميا ومنها إلى شيزر فتسلّمها وانتقل منها إلى حصن أبي قبيس، ونزل على رفينة فأحرقها، واستمر يحرق ويسبي ويخرّب إلى أن بلغ حمص فنزلها وأحرق جنوده جماعة من أهلها، وفي الأثناء كان ابن الصمصامة يستعدّ لملاقاته بعد أن علم بكثرة الجموع التي جاء بها الإمبراطور فحشد جيشًا ضخمًا[2].

وعندما علم باسيل بالأمر، سار إلى الساحل، بعد أن كان قد اقترب من بعلبك فهاجم عرقة وأحرقها وهدّم حصنها، ثم نزل على طرابلس في شهر ذي الحجة 389هـ/ ك1 999م، وأمر بحفر خندق حول المكان الذي يعسكر فيه ليأمن عسكره من غارات القوات الفاطميّة المرابطة في حصن المدينة، ثم قطع قناة الماء، وفيما بعد وصله المدد من البحر مع المؤن والعلف لدوابه التي مات أكثرها في الطريق من حمص لشدّة البرد، وقام بنشر بعض سراياه على طول الساحل، فاتّجه بعضها إلى جبلة في الشمال، وبعضها اتّجه جنوبًا إلى جبيل وبيروت، فوقع في أيديها عدد كبير من الأسرى المسلمين وجيء بهم إلى الإمبراطور فشحنهم في الشلنديان، ثمّ سيّرهما إلى بلاده ليبيعهم رقيقًا في أسواق إزمير وتسالونيكا والقسطنطينيّة[3].

استمرّ حصار الإمبراطور باسيل لطرابلس حوالي اثني عشر يومًا، أي من 6 إلى 18

---

(1) السيد الباز العريني: **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، ط 1، 1982، ص 589؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 299؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّن**، مرجع سابق، ص 53.

(2) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 299؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّن**، مرجع سابق، ص 54.

(3) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 1، ص 245؛ العرينيّ: **الدولة البيزنطيّة**، مصدر سابق، ص 591؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّن**، مرجع سابق، ص 55.

ك[1]، وقد صمد أهلها بقيادة ميسور الصقلبيّ والقاضي ابن حيدرة، ولما وصلته السفن الحربية شنّ هجومه على المدينة من البر والبحر ونشبت معركة رهيبة على الجبهتين أسفرت عن هزيمة ساحقة للإمبراطور ومقتل وجرح عدد كبير من جنوده(1).

ويظهر أنّ نجدة بحريّة من صاحب صيدا أبي الفتح عبد الله بن الشيخ أتت إلى ساحل طرابلس وأخذت شلنديًا للروم(2).

وأمام هذه الهزيمة الثانية له في طرابلس، اضّطر باسيل الثاني أن يلملم فلوله ويعود أدراجه، يوم السبت في 5 محرم/ 22 ك[1] 999م. متجهًا إلى بلاده فانكفأ إلى إنطاكيّة عن طريق اللاذقيّة ومكث فيها إلى شهر كانون الثاني أول سنة 1000م، وعيّن عليها قائدًا جديدًا يُسَمّيه الإنطاكيّ نقفور الماجسطرس مكان داميانوس الذي قتل عند أفاميّة، ثم بلغته أنباء مزعجة عن تحرّك البلغار وتهديدهم لبلاده فرحل مسرعًا وعقد هدنة في أوائل صيف العام الثاني 1001م، مع الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله مدّتها عشر سنوات كفلته حسن العلاقات بين الدولتين حتى أواخر عهده(3).

حادي عشر. محاولات إستعادة الهيبة الفاطميّة

قرّر الفاطميّون أثناء خلافة الظاهر، العودة إلى مشاريع الإحتكاك بالروم، فقام نصر بن مشرف سيّد حصن المنيقة والرواديف، ببناء الحصون شمال سوريا، وبالإغارة على الروم، مشجّعًا والي طرابلس وقاضيها على أخذ مرقية، وإذا كان الفشل حليفهم دفعوا الروم للإنتقام بهجومهم على عكار وعرقا حيث سُبي الكثيرون وكثر التخريب(4).

وقد نجح البيزنطيّون باستمالة والي طرابلس ابن نزّال إليهم، سنة 423هـ/ 1031م،

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 1، ص 246؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 1، ص 344؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 30.

(2) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 1، ص 246؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 1، ص 344؛ أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 2، ص 57.

(3) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 246؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 2، ص 39؛ عمر تدمريّ: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّين**، مرجع سابق، ص 56.

(4) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 246؛ Schlemberger, L' ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol 3, P71.

على أن يؤدّي لهم جزية سنوية، فكان رد الفاطميّين دخول المدينة سنة 424هـ/ 1033م، ففرّ ابن نزّال إلى إنطاكيّة، فأرسل البيزنطيّون حملة بحريّة انتصرت على الأسطول الفاطميّ واستولت على طرابلس، وأعادت ابن نزّال إليها، وبفضل رفض الأهالي الانصياع للبيزنطيّين عادت طرابلس إلى أيدي الفاطميّين، ولم يَحُل موقف ابن نزّال المتخاذل دون أن يمضي بقية العمر في طرابلس حتى العام 382هـ/ 1090م[1].

ثم عقدت هدنة بين الإمبراطور ميخائيل والخليفة المستنصر (427 ـ 478هـ/ 1036 ـ 1094م)، أثمرت انتعاشًا اقتصاديًا، ثمّ تكرّرت الهدنة سنة 437هـ/ 1046م، وكان من نتائجها المباشرة إطلاق خمسين ألف مسيحيًّا كانوا معتقلين في مصر، والترخيص بتجديد بناء كنيسة القيامة[2]. ثم تكرّرت الهدنة سنة 437هـ/ 1046م، حيث رأت الإمبراطوريّة البيزنطيّة ذلك في مصلحتها للوقوف أمام قوّة فتية بدأت تهدّد حدودها الشرقيّة هي قوّة الأتراك السلاجقة، ولكنّ هذه الهدنة لم تمنع انتكاس العلائق البيزنطيّة ـ الفاطميّة، ففي العام 446هـ/ 1054م، رفضت الإمبراطورة تيودورا بنت قسطنطين مدّ مصر بالحبوب إثر الشّدة المستنصرية (المجاعة) التي أصابتها، مُشترطة موافقة الخليفة المستنصر على عقد معاهدة دفاع معها ضد السلاجقة، ولما لم تنجح في ذلك مالت إلى السلاجقة للتحالف معهم؛ فما كان من المستنصر إلا أن أرسل جيشه إلى أعمال إنطاكيّة، فردّ البيزنطيون على هذه الإجراءات بحملة بحريّة على طرابلس، وتحرّكت جيوش الإمبراطورة فسيّرت أسطولًا بحريًّا من **(50)** قطعة مشحونة بالمقاتلين وآلة الحرب، وكان هدفه الأول الاستيلاء على طرابلس، القاعدة الرئيسيّة للأسطول الفاطميّ، فوصلها سنة 448هـ/ 1056م، وحدثت عملية إنزال حولها، وقام البيزنطيّون بمحاصرتها من البر والبحر[3]، ولما كان جيش طرابلس قد

---

(1) أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 2، ص 65؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ج1، ص131 ـ .Shlemberger, L' ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol 3, P71

(2) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، ج 8، ص 53؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 326.

(3) ابن أيبك الدوداريّ: **كنز الدرر**، مصدر سابق، ج 6، ص 369؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 2، ص 226، 231؛ المقريزي: **الخطط المقريزية**، دار صادر، بيروت، ط 1، لا ت، ج 2، ص 226.

خرج مع جيوش مكين الدولة للقتال في نواحي إنطاكيّة، فإنّ أهلها طلبوا المساعدة من إخوانهم المسلمين، فأنجدها قاضي صور أبي محمد بن أبي عقيل بإرسال قوات كبيرة برًا وبحرًا، وقد نشبت بين الفريقين معارك عدّة، أسفرت عن مقتل عدد كبير من البيزنطيّين، ما اضطرّ الباقين منهم إلى الانسحاب، وأبحروا دون تحقيق هدفهم في الاستيلاء على المدينة، وتوجّهوا شمالًا، فهاجموا حصن الخوابي في الشمال من أنطرطوس التي استولوا عليها، وتابعوا سيرهم فهاجموا اللاذقيّة واستردّوها، وتوّجوا حملتهم أخيرًا بالانتصار على مكين الدولة وأسره ومن معه من أعيان العرب في 28 ربيع الأخرة 450هـ/ 24 حزيران 1058م[1].

بعض الاستنتاجات

بعد كلّ ما مرّ معنا في هذا البحث يمكننا أن نلاحظ ما يلي:

1. أنّ المصادر سواء أكانت عربيّة أم يونانيّة، لم تقدّم لنا عن الصراع السياسيّ والعسكريّ الأمويّ- البيزنطيّ، خاصّة في عهد السلالة السفيانيّة، سوى وقائع عسكريّة وتحديداً وقائع مرتبطة بالكرّ والفَرّ في التنافس العربيّ- البيزنطيّ العسكريّ، وكما أسلفنا القول، ففي عهد الخلافة الراشدة كان التنافس البحريّ الإسلاميّ على أشدّه مع البيزنطيّين، وكان هذا التنافس جزءًا من حركة الفتوح.
2. ومن الأمور اللافتة، ورغم الفتح العربيّ والغزوات المتبادلة بين العرب والبيزنطيّين، أن البيزنطيّين كانوا موجودين في أرجاء لبنان بسهولة ولم نجد توضيحاً لذلك، ومن الأمثلة على ذلك، ما حصل زمن حكم معاوية لبلاد الشام، في السنة السابعة من خلافة عثمان بن عفّان عندما مات غريغوريوس ابن أخت هرقل في مدينة هليوبوليس (بعلبك)، حُنِّط جثمانه وأُرسل إلى القسطنطينيّة ليُدفن هناك، ما يدلّ على مدى التسامح والاحترام بين الطرفين،

(1) ابن أيبك الدواداريّ: **كنز الدرر**، **مصدر سابق**، ج 6، ص 369؛ المقريزيّ، **الخطط المقريزية**، **مصر سابق**، ج 2، ص 226؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 327.

خاصّة في حالات الموت بالرغم من العداوة بينهما[1].

3. من المرجّح أن غزوات الروم المتكرّرة لمنطقة العاصي وجند حمص، كانت السبب في إجلاء الموارنة عن تلك المناطق، والدليل على ذلك أنّ الوجود المارونيّ في تلك النواحي كان قائمًا بشكل ملحوظ في زمن المسعوديّ الذي توفّي سنة 957م، ولم يبقَ من هذا الوجود شيء يستحقّ الذكر بعد خروج الروم من إنطاكيّة أواخر القرن الحادي عشر، والظاهر أن بعض الموارنة هرب من الروم إلى حلب، بينما نزح البعض إلى شمال لبنان[2].

4. لقد كان التوجّه شرقًا هدفه تأمين آسيا الصغرى من إغارات العرب المسلمين، ومع ازدياد النجاح وتحقيق النصر أصبحت سياسة الإمبراطوريّة البيزنطيّة في عهد كلٍّ من نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثاني أكثر عدوانيّة، وأصبحت الأهداف أكثر طموحًا. ولقد أعطى الإمبراطور لحملاتهم الكبيرة ضد المسلمين سِمة دينية، ليلهبوا مشاعر رعاياهم ويبرّروا التكاليف الباهظة لحملاتهم العسكريّة التي هدفت للاستيلاء على الشرق الأدنى الإسلامي.

5. وأخيرًا بعد هذا التاريخ ومع انتهاء الأسرة المقدونيّة مع آخر أباطرتها رومانوس ليكابيوس سنة 1057م، توقفت فترة التوسّع لتبدأ فترة تأخّر الدولة وانحطاطها مع تكاثر الفوضى والفتن الداخليّة، ثم فترة التفكّك والانهيار مع أسرة أنجيلوس، وبعدها فترة اليقظة مع دولة صغيرة إرثها كبير وظرفها خطير، وتعتبر الفترة الممتدة بين الأعوام 1389 ـ 1453 م، هي فترة النهاية مع قسطنطين الحادي عشر[3].

(1) Theophanes, Ami Mudi, THE CHRONICLE OF THEOPHANES, An English translation by Harry Turledove, University of Penselvenia, 1982, P 44.

(2) كمال الصليبيّ: **منطلق تاريخ لبنان**، منشورات كارافان، نيويورك، 1979، ص 64.

(3) أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 2، ص 61، 169، 208، 253، 279.

فهرس المصادر والمراجع

أ. المصادر

1. ابن الأثير، عز الدين علي: **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، 2012.
2. ابن العبريّ، أبو الفرج جمال الدين: **تاريخ الزمان**، تعريب الأب إسحق أرملة، قدّم له الأب الدكتور جان موريس فييه، منشورات دار المشرق، بيروت، 1991.
3. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة: **ذيل تاريخ دمشق**، نشره أمدروز، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1908.
4. ابن أيبك الـدواداريّ، أبو بكر بن عبد الله: **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ط 1، 1961.
5. ابن حوقل النصيبي، أبو القاسم: **كتاب صورة الأرض**، طبعة دار صادر نقلًا عن طبعة ليدن، 1928.
6. ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن:

1) **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين أبي سعد عمر بن غرامة العمريّ، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 1995.

2) **تهذيب تاريخ دمشق**، تحقيق عبد القادر بدران، طبعة دمشق، 1914.

7. الأزدي، ابن ظافر: **أخبار الدول المنقطعة مع مقدمة وتعقيب لأندريه فريّه**، المعهد الفرنسيّ، القاهرة، 1972.
8. الأزدي، محمد بن عبد الله: **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1970.
9. الإنطاكيّ، سعيد بن يحيى: **تاريخ الإنطاكيّ المعروف بصلة أوتيخا**، تحقيق عمر تدمريّ، جروس برس، طرابلس، 1990.
10. البلاذريّ، أحمد بن يحيى: **فتوح البلدان**، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار

الكتب العربيّة، بيروت، ط 1، 1987.

11. خليفة بن خياط، أبو عمرو العصفريّ: **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم العمريّ، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، 1977.

12. الذهبيّ، شمس الدين محمد: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (حوادث ووفيات 351 ـ 380 هـ.) (حوادث ووفيات 381 ـ 400 هـ.)**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1993.

13. الـروذراوري، ظهير الدين: **ذيل كتاب تجارب الأمم مع نخب من تواريخ شتى**، نشر أمدروز، مصر، 1916.

14. الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة مصر، 1963.

15. المقريزيّ، تقي الدين أحمد:

1) **إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميّين الخلفاء**، دار الكتب العربية، بيروت، ط 1، 2001.

2) **الخطط المقريزيّة**، منشورات دار صادر، بيروت، ط 1، لا ت.

16. المنبجيّ، أغابيوسبن قسطنطين: **المنتخب من تاريخ المنبجي**، تحقيق عمر تدمريّ، دار المنصور، طرابلس، 1986.

17. النويريّ، شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ط 1، 1986.

18. الهمذانيّ، محمد بن عبد الملك: **تكملة تاريخ الطبري**، تحقيق ألبرت كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط 2، 1961.

19. ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبي عبد الله الروميّ: **معجم البلدان**، تحقيق فريد الجنديّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1990.

20. اليعقوبيّ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: **كتاب البلدان**، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1988.

ب. المراجع باللغة العربيّة

1. تدمريّ، عمر:

1) **لبنان من الفتح الإسلاميّ حتى سقوط الدولة الأمويّة (13 ـ 132 هـ. / 634 ـ 750 م.)**، جروس برس، طرابلس، 1990.

2) **لبنان من قيام الدولة العباسيّة حتى سقوط الدولة الإخشيديّة (132 ـ 358 هـ. / 750 ـ 969 م.)**، جروس برس، طرابلس، 1992.

3) **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّين (358 ـ 518 هـ. / 969 ـ 1124 م.)**، دار الإيمان، طرابلس، 1994.

4) **تاريخ طرابلس السياسيّ والحضاريّ عبر العصور**، دار الإيمان، طرابلس، ط 2، 1984.

2. الدبس، يوسف: **الجامع المؤصّل في تاريخ الموارنة المفصّل**، طبعة بيروت، 1905.

3. رستم، أسد:

1) **الروم وصلاتهم بالعرب**، الطبعة الثانية، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، 1988.

2) **كنيسة مدينة الله إنطاكيا العظمى**، منشورات النور، بيروت، 1958.

4. سرحان، كوثر: **لبنان في المصادر اليونانيّة البيزنطيّة (من القرن 7 حتى القرن 10)**، طرابلس، 2016.

5. الصليبيّ، كمال: **منطلق تاريخ لبنان**، منشورات كارافان، نيويورك، ط 1، 1979.

6. عثمان، فتحي: **الحدود الإسلاميّة البيزنطيّة بين الإحتكاك الحربيّ والإتصال الحضاريّ**، الدار القوميّة للطباعة والنشر، لا ت.

7. العدوي، إبراهيم أحمد: **الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية**، منشورات مكتبة نهضة مصر بالفجالة، لا ت.

8. العريني، السيد الباز: **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، ط 1، 1982.

9. القطّار، الياس: **لبنان في القرون الوسطى من الفتح الإسلاميّ إلى الاحتلال الفرنجيّ (13 ـ 491 هـ. / 634 ـ 1098 م.)**، بيروت، ط 1، 2003.

ج. المراجع الأجنبيّة

1. Anni Mundi: Theophanes THE CHRONICLE OF THEOPHANES, An English translation by Harry turdelove, University of Penselvenia, 1982.
2. Bury, J. B.: A HISTORY OF THE LATER EMPIRE, Vol 2, London, 1889.
3. Runciman, Steven: THE BYZANTINE CIVILISATION, New York, 1956.
4. Schlumberger, Gustave: L'ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol 1, Paris, 1896 - 1905.
5. Vasiliev, Alexander: HISTOIRE DE L'EMPIRE BYZANTINE, Vol 1, 1933.

دار بيروت الدولية



للطباعة والنشر والتوزيع

بإدارة الدكتور حسن محمد إبراهيم

بيروت – لبنان

009613973983

موقع المجلة الإلكتروني: www.sadaloulum.com
البريد الإلكتروني: sadaloulum@gmail.com
الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف الدوريات الإلكترونية: ISSN 2959-9431